

أثر استقرار الأسرة في بناء الإنسان 26 ذو الحجة 1447 هـ

عِبَادَ اللَّهِ: أَوْصِيكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَلَيْكُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْأُسْرَةُ هِيَ نَوَاةُ الْمُجْتَمَعِ، وَهِيَ اللَّبَنَةُ الْأُولَى فِي تَكْوِينِهِ، وَعَلَيْهَا يُبْنَى مَجْدُهُ، وَيَعْلُو شَأْنُهُ؛ وَلِذَلِكَ اعْتَنَى دِينُنَا الْحَنِيفُ بِنَاءِ الْأُسْرَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَأُولَى أَهْمِيَّةٍ بِالِغَةِ لِتَكْوِينِهَا؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَهَمِّ مَكُونَاتِ الْمُجْتَمَعِ.

وَلَقَدْ ائْتَنَّا اللَّهَ وَعَلَيْكُمْ عَلَيْنَا بِنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ جَدًّا، أَنْ خَلَقَ لَنَا مِنْ أَنْفُسِنَا أَزْوَاجًا؛ لِنَسْكُنَ إِلَيْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وَجَعَلَ الْإِسْلَامُ ضَوَابِطَ مُهِمَّةً فِي الْإِخْتِيَارِ الصَّحِيحِ لِكُلِّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ لِبِنَاءِ أُسْرَةٍ صَالِحَةٍ؛ إِذَا الْإِخْتِيَارُ الصَّحِيحُ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ نَجَاحِ الْأُسْرِ؛ لِتَحَقُّقِ فِيهَا الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، وَهَذَا أَهَمُّ عَطَاءٍ لِلْبَيْتِ الْأُسْرِيِّ الْجَدِيدِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اخْتِيَارِ الزَّوْجَةِ: «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسْبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاطْفَرِ بَذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَجَعَلَ مِنْ أَهَمِّ الْأَشْيَاءِ فِي اخْتِيَارِ الزَّوْجِ: الدِّينَ وَالْخُلُقَ؛ لِأَنَّهُ الْقِيَمُ الْمُمْسِكُ بِدَفَّةِ سَفِينَةِ الْأُسْرَةِ، فَإِذَا كَانَ ذَا خُلُقٍ وَدِينٍ طَبَعَ الْأُسْرَةَ بِطَابَعِهِ، وَوَقِيَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ النَّارَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَرَّوْجُوهُ، إِلَّا تَفَعَّلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ».

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَدْ خَطَبَ ابْنَتِي جَمَاعَةً فَمَنْ أَرْوَجُهَا؟ قَالَ: مِمَّنْ يَتَّقِي اللَّهَ، فَإِنْ أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا، وَإِنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمَهَا». ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ».

وَبَعْدَ الْإِخْتِيَارِ الصَّحِيحِ عَلَى الْوَالِدَيْنِ تَوْجِيهَ الْأَبْنَاءِ إِلَى تَعْظِيمِ وَاحْتِرَامِ عَقْدِ الزَّوْجِيَّةِ. ذَلِكَ الْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ، وَالْعَقْدُ وَالرِّبَاطُ الْقَوِيُّ الْمُحْكَمُ، الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صِفَةِ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَذَكَرَ خُطْبَتَهُ ﷺ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمِمَّا جَاءَ فِيهَا: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحَلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ».

وَكَذَلِكَ تَوْجِيهَ الزَّوْجَيْنِ إِلَى أَنَّ الْمِفْتَاحَ الْأَسَاسِيَّ لِلسَّعَادَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَتَكْوِينِ الْأُسْرَةِ السَّعِيدَةِ هُوَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْمُعَاشِرَةِ، وَتَبَادُلُ مَشَاعِرِ الْحُبِّ وَالْإِحْتِرَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرَتْهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اتَّقُوا اللَّهَ - تَعَالَى - وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْوَالِدَيْنِ الدَّوْرَ الْكَبِيرَ فِي تَنْشِئَةِ جِيلٍ قَادِرٍ عَلَى تَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْأُسْرِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ الْمَقْرُونِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالَّذِي مِنْهُ: الْعِشْرَةُ بِالْمَعْرُوفِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ مِنْ جَمِيلِ الْأَقْوَالِ، وَتَحْسِينِ الْأَفْعَالِ، وَطَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَاسْتِدَامَةِ الْبَشْرِ، وَتَوْسِيعِ النَّفَقَةِ دُونَ إِسْرَافٍ، وَقِيَامِ كُلِّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يَقُومَ لَهُ الْآخَرُ؛ لِتَحَقُّقِ السَّعَادَةِ، وَتَحْصُلِ السَّكِينَةِ، وَتَسْتَقَرَّ الْبُيُوتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وَأَيْضًا تَرْبِيَةَ الْأَبْنَاءِ وَالْبَنَاتِ عَلَى الرِّضَا وَالْقَنَاعَةِ، وَأَنَّ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى الرِّضَا وَالْقَنَاعَةَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ
 لِلْعِبَادِ مِنْ أَرْزَاقٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْ أَبِي
 هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَارْضُ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَعْنَى النَّاسِ»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ؛ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».
 فَالْغِنَى الْحَقِيقِيُّ الْمُعْتَبَرُ يَكُونُ بِالرِّضَا وَالْقَنَاعَةِ وَاسْتِعْنَاءِ النَّفْسِ، وَعَدَمِ الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا؛ بَلْ يَكُونُ
 الْحِرْصُ عَلَى الدِّينِ وَالْخُلُقِ، وَلِذَلِكَ رُبَّمَا تَجِدُ مَنْ يَمْلِكُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ فَقِيرُ
 النَّفْسِ، مُجْتَهِدٌ فِي الزِّيَادَةِ وَالِاسْتِكْثَارِ، فَهُوَ لَا يَعِيشُ عَيْشَةَ الْأَغْنِيَاءِ، وَإِنَّمَا يَعِيشُ عَيْشَةَ الْفَقْرِ مَعَ
 الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ؛ وَهَذَا مِنْ أَشَدِّ الْأَفَاتِ فِي هَدْمِ الْبَيْتِ الْأُسْرِيِّ، وَأَنْحِرَافِ أَفْرَادِهِ وَتَفَرُّقِهِمْ. قَالَ عَلِيُّ
 ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

النَّفْسُ تَجْزَعُ أَنْ تَكُونَ فَقِيرَةً وَالْفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ غِنَى يُطْغِيهَا
 وَغِنَى النَّفْسِ هُوَ الْكَفَافُ فَإِنْ أَبَتْ فَجَمِيعُ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يَكْفِيهَا

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ قَدْ حَرَصَ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأُسْرَةِ وَتَمَاسُكِهَا، وَرَغَبَ فِي
 الْإِبْقَاءِ عَلَى عَقْدِ النِّكَاحِ، وَأَمَرَ الزَّوْجَ بِالْمُعَاشَرَةِ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَوْ مَعَ كَرَاهَتِهِ لِزَوْجَتِهِ، قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾،
 وَوَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى عَقْدَ النِّكَاحِ بِالْمِيثَاقِ الْغَلِيظِ، فَقَالَ: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، وَمُقْتَضَى
 وَصْفِهِ بِذَلِكَ الْإِسْتِدَامَةُ وَالسَّكْنُ وَالِاسْتِقْرَارُ؛ لِهَذَا يَجِبُ عَلَى الزَّوْجَيْنِ أَنْ يُقَاوَمَا كُلَّ مَا يَتَهَدَّدُ بِهِ
 الْمَطْلَبُ السَّنِيَّةَ، فَيَتَجَاوَزَا مَا يَقَعُ مِنَ الْخِلَافَاتِ الزَّوْجِيَّةِ الَّتِي قَدْ تُفْسِدُ تِلْكَ الرَّابِطَةَ الْمُحْكَمَةَ،
 وَالْعَلَاقَةَ الْمَتِينَةَ، فَإِنَّ حَلَّ عَقْدِ النِّكَاحِ، وَطَلَبَ الْإِنْفِصَالِ مِنْ قَبْلِ الزَّوْجَةِ أَمْرٌ مَحْظُورٌ، لَا يُلْجَأُ إِلَيْهِ إِلَّا

عِنْدَ تَعَدُّرِ اسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَبَعْدَ اسْتِنْفَادِ جَمِيعِ الطَّرِيقِ، أَخْرَجَ النَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ
رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُنْتَزِعَاتُ وَالْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ».

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ مِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى وَرُودَ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي تُحَذِّرُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الشَّرْعِيَّةِ،
الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الطَّلَاقِ، وَمِنْ ذَلِكَ: مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا» أَيْ خَدَعَ وَأَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا،
بِأَنْ يَذْكَرَ مَسَاوِيءَ الزَّوْجِ عِنْدَ امْرَأَتِهِ، أَوْ مَحَاسِنَ أَجْنَبِيٍّ عِنْدَهَا. وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ
الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ
فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ
تَسْأَلُ طَلَاقَ أُخْتِهَا، لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا، فَإِنَّمَا لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا».

عِبَادَ اللَّهِ: خُلِقَ ذَمِيمٌ اعْتَرَى بَعْضَ الْفَتَيَاتِ، وَهُوَ الْعُزُوفُ عَنِ الزَّوْجِ. فَقَدْ لَبَسَ بِهِ الشَّيْطَانُ عَلَى بَعْضِ
الْفَتَيَاتِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَتَحَمَّلَ الْمَسْئُولِيَّةَ، أَوْ أَنْ يُسَيِّرَ الزَّوْجَ عَلَى حُرِّيَّتِهَا؛ وَيَمْنَعَهَا مِنَ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ،
فَلَا تَخْرُجُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَيَرْفُضُ أَنْ تَعْمَلَ، أَوْ يَمْنَعَهَا مِنَ الْإِسْتِمْرَارِ فِي وَظِيفَتِهَا، وَهَذَا نَاتِجٌ عَنْ رَدَّةِ فِعْلٍ
بَسَبٍ تَصَرُّفَاتٍ خَاطِئَةٍ لِبَعْضِ الْأَزْوَاجِ، وَتَجَاوُزِهِمْ فِي مُعَامَلَتِهِمْ لِأَزْوَاجِهِمْ، مُخَالَفِينَ أَمْرَ رَبِّهِمْ،
وَإِلَّا فَإِنَّ الْقَوَامَةَ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ، تَعْنِي قِيَامَ الزَّوْجِ بِمَا يُصْلِحُ شَأْنَ زَوْجَتِهِ، بِالتَّدْبِيرِ وَالصِّيَانَةِ، وَهُوَ تَكْلِيفٌ
لِلزَّوْجِ، وَتَشْرِيفٌ لِلْمَرْأَةِ، وَتَكْرِيمٌ لَهَا بِأَنْ جَعَلَهَا تَحْتَ قِيَمٍ يَقُومُ عَلَى شُؤْنِهَا، وَيَنْظُرُ فِي مَصَالِحِهَا،
وَيَذُبُّ عَنْهَا، وَيَبْذُلُ الْأَسْبَابَ الْمُحَقَّقَةَ لِسَعَادَتِهَا وَطُمَأْنِينَتِهَا.

وَمِنْ أَسْبَابِ عُزُوفِ بَعْضِ الْفَتَيَاتِ عَنِ الزَّوْجِ أَيْضًا: الْخَوْفُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَصِيرُهُنَّ كَمَصِيرِ مَنْ
طُلِّقَتْ بَعْدَ فَشْلِ حَيَاتِهَا الزَّوْجِيَّةِ. وَهَذَا خَطَأٌ! فَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ تَزَوَّجَتْ وَاسْتَقَرَّتْ أُمُورُهَا، وَسَعِدَتْ مَعَ
زَوْجِهَا، وَعَاشَتْ حَيَاةً هَنِيئَةً، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا بِفَضْلِ اللَّهِ فِرَاقٌ، بَلْ مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ.